جمالية الصورة الفنية عند الشاعرين "أبو الطيب المتنبي" و"أبو فراس الحمداني" دراسة موازنة

خولة السعيد،

طالبة باحثة بسلك الدكتوراه،

كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس- جامعة مولاي اسماعيل

الدكتور: عبد الناصر لقاح

مقدمة

إن الاهتمام بتراثنا الأدبي يجعلنا نغوص في أغواره لنتمتع بدرره وكنوزه التي تعتبر ذخائر لا نظير لها، ومن تم ينفض عنها الغبار لتفيد كل متصفح أو مطلع على تاريخها وأسرار آدابها..

والشعر العباسي من التراث العظيم الذي حفظته الأمة العربية؛ حرصا على ربط الصلة بالماضي. ولم يكن هذا الشعر وليد عصره، بل لقد عرف العرب الشعر فاهتموا بنظمه وروايته منذ قرون قبل ذلك، واشتهرت المعلقات، وذاع صيت الشعراء الجاهليين الذين لا نزال إلى عصرنا نحفظ أشعارهم وندرسها؛ ثم ظهر الإسلام فكان أثر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واضحا في الشعر، وبذلك فتح الإسلام أبوابا جديدة أمام الشعراء. وبعدما صار الأمويون يحكمون الدولة العربية، ونقلوا مكان حكمهم من الحجاز إلى الشام تأثرت طبيعة الشعر المتَدَاوَل لاختلاف البيئتين رغم حفاظ الشعراء على شكل وقواعد نظم القصيدة الجاهلية، ثم ظهر نوع جديد كأنه وليد المعلقات هو النقائض حيث اختص بذكر التعصب القبلي والتفاخر بالأحساب والأنساب، وقد كان الهدف من ذلك: التنافس على مدح الخلفاء والوزراء، ونشأت الأحزاب السياسية فنشأ مع كل حزب شعراء ينحازون إليه ويدافعون عنه. كل هذا وغيره مهد لظهور نشأة عظيمة للشعر العباسي الذي شارك في الحياة السياسية والاجتماعية والوجدانية والدينية مشاركة خصبة "ومنها انتماء كثير من أصحابه إلى الطبقات الدنيا في شعوبهم، ومنها سيرورته وذيوعه في الألسنة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، بحيث لم يظهر شاعر كبير في إقليم عربي إلا روت جميع الأقاليم العربية الأخرى أشعاره، ودارت في جميع الأفواه على نحو ما نعرف عن المتنبي، فشعره يتداوله جميع العرب في أوطانهم المختلفة، من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر"[1]

وقد تمثل الشعر العباسي في بداية أمره الموروث الشعري للمراحل السابقة له، يُنظر في معانيه ويُقتبس من صوره ومجازاته، غير أن طبيعة الأدب الحية جعلت الشاعر العباسي يساير مستجدات الحياة الاجتماعية والواقع المعاش؛ وبذلك استطاع الشاعر العباسي أن يتفاعل مع مقومات الحضارة فيجعل المتلقي يستقرئ إنتاج هذا العصر ممثلا في قصيدته ما جد من مستويات اللغة والإيقاع والصورة الشعرية/ الفنية.

إن النص الشعري هو نص أدبي تحتل فيه الصورة الفنية مكانة كبيرة، فهي الشكل الفني الذي يعبر عن إبداع الشاعر ليجعل النص لوحة فنية تكونها صور عديدة، ومن هنا تكمن قيمة وأهمية الموضوع المنتقى الذي تم اختياره للحديث عن الإبداع الشعري العباسي؛ لكن طبعا لا يمكن لأي بحث كان أن يلم بكل الشعراء العباسيين وشعرهم، خاصة بدراسة هذه النصوص، ودراسة الصور الفنية فيها؛ إذ الصورة هي ما يبين فخامة اللغة وجزالة اللفظ وقوة التعبير والأداء كذلك؛ حيث اهتم القدماء والمحدثون بدراسة الصورة – لفظا ومعنى – واستأثرت الصورة الفنية بشكل عام اهتمامهم لما لها من أهمية في عالم الشعر، فالصورة الفنية في النص الشعري تثير المتلقي فتجعله

1- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور. شوقي ضيف. ط.2 دار المعارف. ص: 6

يرى لها بعدا، ولكن بتأمله لها يصبح هذا البعد أبعادا كثيرة ومتعددة بألفاظها، ودلالاتها؛ وحمولاتها.

وبما أن العصر العباسي يزخر بالأدباء، فقد كان من المفروض العناية بأدبهم على مر عهود الأمة العربية، ولأن «المتنبي» شاعر فحل يعرفه الخيل والقرطاس والقلم كما يقول في شعره:

الخيـــــل والليـــــل والبيـــــداء تعرفنـــــي والســـــيف والـــــرمح والقرطـــــاس والقلـــــم[1]

وجب دراسة هذا النوع من الشعر، وبما أن " أبا الطيب" كان من الذين يجالسون سيف الدولة كأنه أحد أقربائه، ارتأيت أن تكون هناك موازنة بينه وبين أحد أقرباء " سيف الدولة" فعلا؛ هو: "أبو فراس الحمداني" الذي كان أميرا لا يحتاج إلى تكسب من هذا الخليفة أو ذاك بشعره؛ بل كان الشعر ينهال من لسانه وينساب كأنه الماء الفياض.

يقول الدكتور "عبد القادر القط":

"الصورة في الشعر هي «الشكل الفني» الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني."[2]

فالصورة تجعلنا أيضا نركز على بلاغة اللغة العربية إذ تشمل أدوات تعبيرية شعرية عديدة ضمن علم البيان والبديع والمعاني والعروض ... وغيرها من وسائل التعبير الجمالي. ثم إن قراءة النص الشعري تمنح اللغة حسا فنيا ولغة عذبة؛ تُجَمّل الأسماع وتُحَسّن الأسلوب، وتُحَبّب الاطلاع على اللغة أكثر، واستكشاف علومها والتمكن من بلاغتها، كما أن الشعر يجعل دارِسَه متمكنا من اللغة وفصيحا عند الحديث، فحين نقرأ مثلا كقراء عاديين شعر امرئ القيس، أو حسان بن ثابت، أو جرير، أو أبي نواس أو المتنبي أو المعتمد بن عباد، أو نزار قباني.. وغيرهم من شعراء الأجيال والعصور نلمس تصويرا تاريخيا وجغرافيا لحياة الشاعر ومحيطه انطلاقا من الصور الفنية الموظفة في أشعاره، بل قد نجده يصور حياة وآمال وآلام شعبه كذلك تصويرا فنيا وأدبيا يذهل متلقيه ويثير حفيظته. وهذا انطلاقا من الصورة الفنية الموظفة أساسا في الشعر، حيث تتجلى الصورة في النص الشعري كإبداع لوحة فنية أبدعها فنان بريشته وألوانه..

فما الطابع الذي أخذته الصورة الشعرية في العصر العباسي؟ وهل اختلفت تجلياتها عما سبقها من أدب؟

المحور الأول: الصورة الفنية في الشعر العباسي

الصورة الفنية هي ركيزة من ركائز الجمال الأدبي خاصة حين يرتبط الأمر بالشعر، وقد استأثرت باهتمام النقاد والبلاغيين قديما وحديثا، لتمثلها في الشعر منذ كان.

ويحفظ التاريخ العربي أدبا زاخرا لا يفنى يعيش كل العصور مع كل الأجيال ، و الشعر العباسي نموذج لهذه الحياة التي تزخر بمقومات الفن الأدبي الجميل الذي كان وليدا لما سبقه و مهدا متينا لما بعده ، فقد كان قويا بظروف الحضارة التي كانت حينها، إذ شاركها حياتها السياسية و الاجتماعية و الدينية و الوجدانية... حيث إنه في البداية كان متمثلا ما سبقه من موروث شعري إلا أن ظروف العصر فرضت على الشاعر أن يسير وفق ما جد من

1- https://www.aldiwan.net/poem10521.html

2- عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر. دار النهضة العربية_ بيروت1978. ص. 435. نقلا عن " الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي. (تقديم)

الحياة ليكون واقعيا، و مؤرخا للأحداث بكلماته، فيجد المتلقي صورا جديدة لما ينقله الشاعر العباسي. ومادامت الصورة هي تلك اللوحة التي يشكلها الشاعر بإبداع اللفظ والمعنى فإن الشاعر العباسي قد ثار على قوانين اللغة كما ثار على الطلل لينشئ بذلك لوحاته الشعرية المكونة من صور فنية مختلفة. فكيف كان ذلك؟

لقد عرف العصر العباسي الأول مجموعة من التيارات الجديدة التي لم تكن قبل ذلك ك:

المجون الذي اشتُهر به " أبو نواس" – "حماد عجرد" – " أبو العتاهية"..

الزندقة هي التيار الذي نجم عن الامتزاج بشعوب من نِحل وديانات شتى، ومن أشهر الزنادقة "بشار بن برد" _ " صالح بن عبد القدوس"

الشعوبية وتعكس حقد الشعوبية المغلوبة على الأمة العربية التي حباها الله تعالى برسالة الإسلام، ومن أبرز دعاة الشعوبية " سهل بن هارون" _ " بشار بن برد" _ " أبو نواس"..

الزهد ذلك التيار الذي برز فيه المتصوفون والوعاظ أمثال " أبو العتاهية"..

كما تطورت أغراض الشعر خاصة فن الوصف الذي شمل الطبيعة الجميلة لذلك العصر، والقصور والمعارك ومجالس اللهو...فتطورت أيضا المعاني الشعرية إذ انصرف الشعراء عن المعاني القديمة إلى معان جديدة قوامها المحسنات اللفظية والمعنوية تأثيرا بالحضارة وتغيرات الحياة..

أمافي العصر العباسي الثاني فقد ضعف شعر التيارات وطغى المدح الذي به كان يتقرب الشعراء من الخلفاء والأمراء طمعا في نيل رضاهم وهداياهم وحبهم.

المحور الثاني: الصورة الفنية في شعر أبي الطيب المتنبي، وأبي فراس الحمداني

إن الصورة الفنية هي صورة يوظفها كل شاعر من أجل أن يشكل أفضل قصائده، وقد تكون الصورة واحدة، ولكن المبدعين كثر، وكل واحد منهم يبدع تشكيل قصائده لتظهر في أحسن حلة فينافس بها باقي الشعراء. وتتكاثر الصورة بتكاثر الشعراء، تطور الحضارة وتغير أحوال المجتمع.

الصورة الفنية عند أبي الطيب المتنبي في عيون البلاغيين

يعتبر "المتنبي" من فحول الشعراء الذين تميزوا بشعرهم في هذا العهد، فكان إمبراطور الشعر العربي بلا منازع و لا يزال إلى عهدنا يعتبر سيد شعراء العرب، هو قُدوَتُهُم وقائدهم إلى التميز؛ فكثيرا ما تفنن في نظم قصائده بل حتى في سرقاته الفنية التي كانت خفية من شدة ما كان يبدع فيها من صور جديدة لدرجة أن "أحمد مصطفى المراغي" في كتابه " علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع" الذي سعى من خلاله إلى كشف أسرار الصورة الفنية في أبيات شعرية كثيرة لشعراء اختلفت أغراضهم وعصورهم... "ذكر أن المتنبي يتحيل في إخفاء مأخذه حين نقل عن الطرماح بن حكيم الطائي قوله:

لقـــــد زاد حبـــــا لنفســـــي أننـــــي بغـــيض إلـــى كـــل امـــرئ غيـــر طائـــل

فقال هو:

وإذا أتتـــــك مـــــذمتي مـــــن نـــــاقص فهـــــي الشـــــهادة لـــــي بـــــأني كامـــــل

يقول " المراغي": " فإن ذم الناقص أبا الطيب كبغض من هو غير طائل الطرماح، وشهادة ذم الناقص أبا الطيب كزيادة حب الطرماح لنفسه. وليس بضائر في التشابه اختلاف الغرضين كأن يكون أحدهما نسيبا والآخر

مديحا أو هجاء أو افتخارا؛ فإن الحاذق من يتحيل في إخفاء مأخذه بتغيير لفظه والعدول عن الوزن والقافية".[1]

وأشار كذلك إلى سرقة أخرى للمتنبي كانت صورتها أفضل من أصلها عند قول "البحتري":

تصـــــد حيـــــاء أن تـــــراك بأوجـــــه أتـــى الـــذنب عاصـــيها فلِـــيم مطيعهـــا

مع قول أبي الطيب المتنبي وهو أحسن منه سبكا:

وجـــــرم جـــــره ســـــفهاء قـــــوم وحـــــل بعيـــــر جارمـــــه العـــــذاب

وكأنه اقتبسه من قوله تعالى: [أتهلكنا بما فعل السفهاء منا] [الأعراف][2]

ويشير المراغي أيضا إلى إبداع المتنبي في حسن التخلص من غرض إلى آخر حين قال:

" [...] هو أن ينتقل الشاعر من فن إلى آخر بأحسن أسلوب مع لطف تحيل وحسن تخلص؛ بحيث لا يشعر السامع بالانتقال لشدة الالتئام كأنهما أفرغا في قالب واحد، وذلك يحرك من نشاط السامعين ويعين على إصغائهم، وأحسنه ما تهيأ للناظم في بيت واحد[...] ويليه ما جاء في بيتين كقول المتنبي يمدح المغيث بن علي العجلي:

مـــرت بنـــا بـــين تِرْبَيْهَـــا فقلـــت لهـــا مـــن أيـــن جـــانس هـــذا الشـــادن العربـــا

فاستضـــحكت ثـــم قالـــت كالمغيـــث يُـــرى ليـــث الشـــرى وهـــو مـــن عجـــل إذا انتســـبا[3]

يلاحظ في هذين البيتين كيف أن المتنبي استطاع أن ينتقل من النسيب إلى المدح حيث أعجب بجارية جميلة بدت له غير عربية فلما سألها كيف اختلطت بالعرب كان جوابها هو بداية مدح المغيث لأنها شبهت نفسها به.

أما "عبد القاهر الجرجاني" ذلك العلامة الكبير الذي كثيرا ما اهتم بقضية اللفظ والمعنى فيعلن في دلائل الإعجاز: حسن اختيار المتنبي لألفاظه مع جمال معنى قوله حين أشار إلى هذا البيت:

غصـــــب الـــــدهرَ والملـــــوك عليهـــــا فبناهـــــا فـــــي وجنـــــة الـــــدهر خـــــالا

فقال " الجرجاني":

" قد ترى في أول الأمر أن حسنه أجمع في أن جعل للدهر " وجنة"، وجعل البنية "خالا" في الوجنة، وليس الأمر على ذلك، فإن موضع الأعجوبة في أن أخرج الكلام مخرجه الذي ترى، وأن أتى " بالخال" منصوبا على الحال من قوله" فبناها". أفلا ترى أنك لو قلت: " وهي خال في وجنة الدهر"، لوجدت الصورة غير ما ترى؟"[4].

ويلاحظ في البيت الذي استدل به الجرجاني أن أبا الطيب استعار للدهر وجنة، بل وجعل في هذه الوجنة خالا وهي صورة تجعل المتلقي يقرأها بأبعاد مختلفة فالخال مثلا قد يدل على الاستقرار والثبوت، كما قد يدل أيضا على الشهرة.

ونجد الجرجاني كذلك يرى حسن الكلمة عند المتنبي؛ يقول:

" انظر إليها في بيت المتنبي: [من الطويل]

1- علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع. باب السرقات الشعرية التشابه والنقل. ص.310

2- المصدر نفسه. ص. 309

3- علوم البلاغة. البيان والمعاني والبديع باب: التخلص- الخروج. ص.ص. 316/317

4- دلائل الإعجاز في علم المعاني " عبد القاهر الجرجاني" باب حسن اللفظ والنظم ص.ص.74/ 75

لـــــو الفَلَـــك الـــدوار أَبغضـــتَ ســـعيه لعَوقَـــــهُ شـــــيء عـــــن الـــــدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل، بحسب نُبلها وحسنها[...]"[1]

الصورة الفنية عند أبي فراس الحمداني في عيون البلاغيين

يعتبر "أبو فراس الحمداني" شاعرا أميرا وفارسا مقداما، ولعل من أجل ذلك لم يلق اهتماما كبيرا من النقاد والأدباء رغم قصائده الإبداعية؛ فقلما نجد كتابا اهتم بشعر أبي فراس في ثنايا صفحاته بينما نجد كتبا عن سيرة المتنبي وعن شعره ...فالمراغي مثلا في كتابه علوم البلاغة كثيرا ما استشهد بأبيات أبي الطيب الشعرية بينما لم يذكر " أبا فراس " إلا مرة واحدة عند حديثه عن المجاز العقلي أو المجاز الحكمي قائلا:

"[...] إسناد الفعل إلى المصدر نحو قول أبي فراس:

ســـــيذكرني قـــــومي إذا جـــــد جـــــدهم وفـــــي الليلـــــة الظلمـــــاء يُفتقـــــد البـــــدر

فقد أسند الجد إلى الجد أي الاجتهاد وهو ليس بفاعل له بل فاعله الجاد فأصله جد الجاد جدا أي اجتهد اجتهادا، فحذف الفاعل الأصلي وهو الجاد وأسند الفعل إلى الجد"[2] .

وفي هذا البيت شَكَّلَ الشاعر صورة فنية جميلة جعلها عبارة عن تشبيه ضمني إذ يصور مكانته وعظمته لمن تجاهله وأهمله عند أسره فلم يفتده، ويبين له أنه قد افتقده مثلما يفتقد البدر في الليلة الحالكة الظلمة.

وأشار الجرجاني في أسرار البلاغة عند حديثه عن التخييل:

" [...] هذا ونحوه يمكن أن يتعلق به في نصرة التخييل وتفضيله، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه، وتفخيم قدره وتعظيمه، وما كان العقل ناصرَه، والتحقيق شاهده فهو العزيز جانبه، المنيع مناكبه، وقد قيل: " الباطل مخصوم وإن قُضي له، والحق مفلح وإن قضي عليه"، في حكم الجامد الذي لا ينمي، والمحصور الذي لا يزيد؟ وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبي فراس [من الوافر]:

وكنـــــا كالســـــهام إذا أصـــــابت مراميهـــــا فراميهـــــا أصـــــابا

ألست تراه عقليا في نسبه، معترفا بقوة سببه، وهو على ذلك من فوائد أبي فراس التي هو أبو عذرها، والسابق إلى إشارة سرها."[3]

بين المتنبي والحمداني؛ صيت ذائع

إذا قارنا الدراسات التي أجريت حول أبي الطيب المتنبي وشعره، مع ما دُرس من شعر يخص أبا فراس الحمداني، سنجد فرقا كبيرا، وليس ذلك راجع - في رأيي - لندرة شعر الحمداني أو ضعفه، بل لذكاء ودهاء المتنبي الذي كان كنار على علم في زمنه، وقد عرف كيف يخلق لنفسه خلودا أدبيا، حين جعل الجماد يعرفه، والطبيعة، والحيوان:

الخيـــــل والليـــــل والبيـــــداء تعرفنـــــي والســـــيف والـــــرمح والقرطـــــاس والقلـــــم[4]

1- دلائل الإعجاز. ص. 41

2- علوم البلاغة. البيان والمعاني والبديع ص.246

3- أسرار البلاغة. [...] ما يقال في تفضيل التخييل. ص. 273

4- https://www.aldiwan.net/poem10521.html

كما استطاع أن يسمع شعره للأصم، ويريه للأعمى:

أنـــا الـــذي نظـــر الأعمـــى إلـــى أدبـــي وأســـمعت كلمـــاتي مـــن بـــه صـــمم[1]

بالإضافة إلى ما تتداوله بعض الروايات من ادعائه للنبوة.

ومما ذكر حول المتنبي وإبداعه المتنبي ما جاء في " جواهر الأدب" ل"أحمد الهاشمي":

" لا خلاف عند أهل الأدب أنه لم يبلغ بعد المتنبي في الشعر من بلغ شأوه أو داناه والمعري على بعد غوره وفرط ذكائه، وتوقد خاطره، وشدة تعمقه في المعاني والتصورات الفلسفية يعترف بأبي الطيب ويقدمه على نفسه وغيره."[2].

كما ذكر في الكتاب نفسه على لسان بن الأثير:

" وقد اكتفيت من هذا بشعر أبي تمام، والبحتري، والمتنبي، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعُزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة، وحكمة الحكماء[...] وأما المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ولكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال. [...] وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها. وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا[..]"[3] .

ولا يمكن أن يقال مثل هذا الكلام عن شاعر عادي فلولا إبداع " المتنبي" في تصوير المعارك وفي رسم لوحات القتال بكلماته بدلا عن الريشة، وانتصارات من انتصر وهزائم من هزم بوصف شعري متسلسل، ما كان ليلقى إعجابا ممن عاصروه وممن جاؤوا بعده؛ ولا كان ليلقى حسادا من منافسيه ليَكيدوا له في علاقته بسيف الدولة.

أما أبو فراس فلعل عدم اهتمام النقاد به وأخص الأقدمين إلا قلة منهم راجع لكونه أميرا وفارسا شجاعا قبل أن يكون أمير شعره وفارس كلمته، ومن الذين اهتموا بشعره نجد " الثعالبي" الذي اختار أن يذكر له مجموعة من الأبيات الشعرية فيقول: " من غرر أحاسنه قوله"[4] ؛ مما يدل على أنه شاعر متميز، فحكم لغوي وأديب كالثعالبي على شعر أبي فراس بالتميز لجدير بدراسة الشعر وصاحبه والطمع في معرفته أكثر.

ومن خلال جل قصائد "المتنبي" و "الحمداني" يمكن ملاحظة اشتراكهما معا في إبراز صورة سيف الدولة الحمداني ممدوحا ومعاتبا وذلك نظرا لتقربهما منه، ومن أشهر القصائد التي مدح فيها "أبو الطيب" "سيف الدولة" تلك التي مطلعها:

عَـــلَى قَـــدْرِ أَهـــلِ العَـــزمِ تَـــأتِي العَـــزائِمُ وتَـــأتِي عَـــلَى قَـــدْرِ الكِـــرامِ المَكـــارِمُ[5]

وفي هذا البيت تشكيل فني بمقابلة إبداعية اختار فيها الشاعر ألفاظه بدقة ليظهر معنى المدح فهو هنا يبين أن الحمداني كريم النفس بالإضافة إلى أنه يمتلك عزيمة قوية هي سلاح انتصاره على الأعداء، ثم يعاتبه في قصيدة أخرى مطلعها:

1- https://www.aldiwan.net/quote1551.html

2- أحمد الهاشمي جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب. ج.2 ص196

3- المصدر نفسه. الجزء الأول ص. ص. 372_373

4- الثعالبي، خاص الخاص ص. 142

5- https://www.aldiwan.net/poem10524.html

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم[1]

يندب المتنبي حظه بأسلوب إنشائي يقصد من خلاله الإعلان عن لوعته وألمه لأن سيف الدولة يقسو عليه ولا يشعر بما يكن له من حب مما جعله يصاب بالضعف وقد وظف في البيت استعارة مكنية إذ شبه الحزن في قلبه بالنار فكأنها هي التي تحرق قلبه، كما وظف طباقا في البيت يصور من خلاله علاقة التضاد التي يحسها [حر/شبم].

أما أبو فراس فنجده يمدح سيف الدولة في جل أشعاره ومن ذلك قوله:

ألا قل لسيف الدولة القرم إنني على كلّ شيء غير وصفك قادرُ[2]

وقد وظف هنا أسلوبا إنشائيا يفيد الإخبار " إنني" ليبين أنه يستطيع فعل أي شيء إلا وصف سيف الدولة الذي يرى فيه سيده.

إن سيف الدولة قد حظي بمكانة عالية فقد استطاع أن يقف بالعرب ندا قويا مما أهله لاجتماع كوكبة من الشعراء حوله بَهَرَتهُم شجاعته وجوده وكرمه، وفي مقدمتهم ابن عمه " أبو فراس" الذي لم يمدح كرمه، ذلك أن مدحه له ما كان تكسبا أو رغبة في إمارة أو ولاية، بل كان يمدح قوته، وشجاعته، مظهرا مدى حبه له، واحترامه إياه. وقد كان من أقدر شعراء البلاط نقلا لحياة سيف الدولة معتمدا في أغلب أشعاره أسلوب الالتفات والتضمين، والتكرار، كما اعتمد السرد والحوار كثيرا لينقل قصصا وأخبارا تاريخية.

المحور الثالث: مقاربات قرائية لأبيات شعرية من قصائد المتنبي والحمداني

في هذا المحور أختار أبياتا شعرية للشاعرين، وأحللها تحليلا بلاغيا، للتمكن من إظهار بعض الصور الفنية عند المتنبي والحمداني.

يقول أبو الطيب المتنبي[3]:

عذل العواذل حول قلبي التائه	وهوى الأحبة منه في سودائه
يشكو الملام إلى اللوائم حره	ويصد حين يلمن عن بُرَحائِه
وبمهجتي يا عاذلي الملك الذي	أسخطت أعذل منك في إرضائه
إن كان قد ملك القلوب فإنه	ملك الزمان بأرضه وسمائه
الشمس من حساده والنصر من	قرنائه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله	من حسنه وإبائه ومضائه
مضت الدهور وما أتين بمثله	ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

في هذا المقطع الشعري الذي ركب فيه صاحبه بحر الكامل، نجده يخبرنا بِلَوْم اللُّوم له على حبه لكنه لا يبالي بهم فقلبه رغم شدة اللوم منشغل بهواه، وتلك صورة جميلة للحب الذي يشكو منه القلب حرارة لو أحسها اللوم ذاته ما أطاقها.

ثم يعدل أبو الطيب عن مقدمة النسيب بالبيتين الشعريين لينتقل إلى مدح سيف الدولة معلنا مع بداية البيت الثالث أنه مستعد لفدائه بدماء قلبه الذي هو روحه حيث إنه أسخط كل لوامه في سبيل مرضاة ممدوحه الملك الذي

1- https://www.aldiwan.net/poem10521.html

2- https://www.aldiwan.net/poem25294.html

3- ديوان المتنبي. دراسة وإعداد: إسلام إبراهيم. ص. 21

لم يملك قلوب الناس فقط وإنما ملك الزمان بأرضه وسمائه حتى أصبحت الشمس تحسده لأنه صار أعظم أثرا منها؛ أما النصر فهو حليفه إذ أصبح منصورا أينما حل وارتحل إلى أن صار اسم " السيف" من أسمائه، وهنا استعارة جميلة بجعله الشمس تحسد سيف الدولة والنصر مساندا وحليفا له، ليستهل البيت السادس من القصيدة باستفهام" أين الثلاثة...؟" وهو يقصد بالثلاثة: (الشمس والنصر والسيف) هذه التي صارت تبدو له أقل مكانة من ممدوحه الذي يمتاز بصفاتها أكثر مما تتصف هي بها، فالشمس جميلة تضيء الكون بالنهار وهو أشد جمالا يضيء ليل نهار، يأبى الذل حتى إن النصر هو الذي يتبعه كما أنه قاطع صارم مع أعدائه ... فأين الشمس من حسنه وبهائه؟ وأين النصر من إبائه؟ وأين السيف من مضائه؟

ويختتم قصيدته بإخبارنا أن كل تلك الأزمان السالفة لم تجد بنظيره، وأما الأزمان اللاحقة فهي أيضا تعجز عن الإتيان بمثيله.

وقد وظف شاعرنا بهذه القصيدة أساليب إنشائية منها النداء (يا عاذلي) في البيت الثالث والاستفهام (أين الثلاثة...؟) البيت السادس.. وفي البيت الخامس وردت الصور في ثلاثة تراكيب متوازنة ومتوازية قوامها المساواة في عدد الألفاظ وترتيبها ووزنها:

الشمس من حساده/ والنصر من قرنائه/ والسيف من أسمائه.

أما في البيت السابع فنلاحظ توظيفا لما يفيد التقرير والتأكيد (ولقد أتى...) ليقرر ويؤكد عجز الدهور بالإتيان بنظير سيف الدولة

ويلاحظ الغلو في المدح شأن جل الشعراء مما يجعلن نتساءل في مدى صدق الشعر في مدحه هذا!؟

لقد رسم شاعرنا تصريعا في مطلع القصيدة بقافية الشطر الأول مع الشطر الثاني (تائه/ دائه) وهي قافية متداركة حيث يجتمع غيها حرفان متحركان بين ساكنين؛ أما الروي فكان هاء مكسورة، واستعان الشاعر ببحر الكامل حتى يكتمل المدح رغم قلة عدد أبيات القصيدة التي استطاعت أن تصور سيف الدولة الحمداني ملكا محبوبا، وفارسا شجاعا، ورجلا شهما وسيما تغار منه الشمس فتحسده.

ولأبي فراس الحمداني أختار مقطعا شعريا من قصيدته التي مطلعها "أراك عصي الدمع "[1]

أَراكَ عَصِيَّ الدَمعِ شيمَتُكَ الصَبرُ ... أَما لِلهَوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أَمرُ

بَلى أَنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ ... وَلَكِنَّ مِثلي لا يُذاعُ لَهُ سِرُّ

إِذا اللَيلُ أَضواني بَسَطتُ يَدَ الهَوى ... وَأَذلَلتُ دَمعاً مِن خَلائِقِهِ الكِبرُ

تَكادُ تُضيءُ النارُ بَينَ جَوانِحي ... إِذا هِيَ أَذكَتها الصَبابَةُ وَالفِكرُ

مُعَلِّلَتي بِالوَصلِ وَالمَوتُ دونَهُ ... إِذا مِتَّ ظَمآناً فَلا نَزَلَ القَطرُ

حَفِظتُ وَضَيَّعتِ المَوَدَّةَ بَينَنا ... وَأَحسَنَ مِن بَعضِ الوَفاءِ لَكِ العُذرُ

وَما هَذِهِ الأَيّامُ إِلاّ صَحائِف ... لأَحرُفِها مِن كَفِّ كاتِبِها بَشَرُ

نظم أبو فراس الحمداني قصيدته على بحر الطويل مبتدئا بمقدمة غزلية مخاطبا نفسه في "مونولوج" يخفف عنه وحدة سجنه عند الروم، فأبو فراس نفسه متفاجئ من صبره على فراق محبوبته، وقد جعل الدمع متمردا عاصيا، لا يرغب في أن ينزل على خده، موظفا استعارة مكنية، مانحا إياه صفة من صفات الإنسان "العصيان" في "عصي"، وعزة النفس والكبرياء في "من خلائقه الكبر"، ثم شَخَّصَ الهوى فجعله ناهيا آمرا، مستعملا أسلوب الاستفهام

1- https://www.aldiwan.net/poem25258.html

كأنه يخاطب ذلك الهوى الذي شخصه لينتظر منه ردا، وينسلخ الشاعر من لسان الهوى، فيعترف بشوقه في البيت الثاني ؛"بلى أنا مشتاق" ولكنه ليس مشتاقا فقط، بل هو متألم من حرقة الحب، ولأن السر لا يذاع له فقد عصاه الدمع أنفه وكبرياء وتظاهرا بالصبر، فما استطاع الهوى أن ينهاه أو يأمره. إنه هنا يعترف بحبه رغم تجلده، لأنه يسمح لليل أن يرى دموع هواه "إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى" فتأتيه الذكريات التي يحن إليها، وقد جعل الليل يغطيه مستعيرا للهوى يدا يبسطها هو له، كما أذل الدمع المتكبر في استعارة مكنية ذكر فيها المستعار له/ المشبه (الهوى والدمع)، وحذف المستعار منه -في كليهما- أما المستعار ف"اليد" للهوى و"التكبر ثم التذلل" للدمع. وتلتهب نار الأشواق بين ضلوع الشاعر كلما تذكر حبيبته وزاد شوقه لها، ففي قوله "تكاد تضيء النار بين جوانحي" كناية عن شدة الشوق واللوعة الحارقة المشبهة بالنار، مع حذفها وذكر ما يدل عليها -مكان وجود اللوعة والاشتياق- (بين جوانحي)، ويخشى الحمداني الموت قبل لقاء محبوبته التي لم تفي بوعد اللقاء، حيث شبه الحرمان من المحبوب بالحرمان من الماء فجعل نفسه ظمآن حب، ثم وظف الدعاء بعدم القطر الذي يقصد به لقاء الأحبة، كأنه يكره أن يلتقي الأحبة بعد موته؛ هو الذي لم يتمكن من لقاء محبوبته، رغم وفائه لها. وشبه شاعرنا في البيت السابع الأيام بالصحائف موظفا التشبيه البليغ بحذف أداة التشبيه ووجه الشبه "أحرف الصحائف" ب"بشر" في استعارة مكنية.

وغير علم البيان وظف أبو فراس علم البديع حين استخدم المحسنات المعنوية كالطباق في البيت الأول (نهي/ أمر)، وفي البيت الثالث (أذللت/ الكبر)، ثم السادس (حفظت/ ضيعت). والمحسنات اللفظية كالتصريع في البيت الأول (صبر / أمر).

خاتمة

من خلال قراءتنا للمقطعين الشعريين السابقين ندرك أن الصور الفنية هي جزء لا يتجزأ من شخصية الشاعر، فالصورة عند المتنبي فخر واعتزاز بالنفس، وهي عند الحمداني أنفة، كبرياء، وألم.

ونجد الصور متحركة، ومتفاعلة عند كليهما، وقد استمد المتنبي صوره من الطبيعة وحياة القصور، لرغبته الدائمة في التقرب من الخلفاء والوزراء، وكذا من معارك سيف الدولة الحمداني، أما أبو فراس فكانت الصور التي يأتي بها مستمدة من كونه أميرا فارسا سقط في الأسر أكثر من مرة، وانعكاسا لأحداث حقيقية عاشها.

المصادر والمراجع المتوقع العودة إليها في البحث:

- ديوان المتنبي. دراسة وإعداد إسلام إبراهيم. فروس للنشر والتوزيع
- أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه ل: " أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري" بتحقيق:" محمد محيي الدين عبد الحميد".
- الأدب العربي بين الدلالة والتاريخ للكاتب عدنان عبيد العلي. منشورات جامعة آل البيت. 1421 ه. 2000م.
- أسرار البلاغة "عبد القاهر الجرجاني"
- تاريخ الشعر في العصر العباسي. يوسف خليف (دار الثقافة بالقاهرة للطباعة والنشر)
- جامع الدروس العربية للشيخ مصطفى الغلاييني
- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب تأليف السيد أحمد الهاشمي. منشورات مؤسسة المعارف بيروت
- خاص الخاص للكاتب: "أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري" منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني ل عبد القاهر الجرجاني
- علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع للكاتب أحمد مصطفى المراغي

المواقع الإلكترونية:

- https://www.aldiwan.net/poem10521.html
- https://www.aldiwan.net/quote1551.html
- https://www.aldiwan.net/poem10524.html
- https://www.aldiwan.net/poem25294.html